النفحة السابعة والعشرون: تأملات في سورة القدر

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر: 1 ـ 5].

أبشروا أيها المسلمـون:

إنها ليلة العطاء، ليلة الغفران، ليلة مضاعفة الأجور والأعمال، ليلة اتصال أهل الأرض بأهل السماء، ليلة الإشراقات النورانية، والتـجيات العليا، إنها ليلة السلام والأمان، تعالوا معي يا صائمون حتى نرسل بعض النظرات في هذه السورة الكريمة، ونتأمل فيها بعض اللحظات، لنرى الكرم الإلهي الفياض فيها، والنعمة العظيمة المسداة، والرضى والقبول من رب الأرباب تبارك وتعالى.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: 1].

والنون هنا نون العظمة والقدرة، وهي تدل على كمال العناية الإلهية بالقرآن الكريم، وجاء بالضمير ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ ولم يقل أنزلنا القرآن، وفي ذلك شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه، وتنويه بشأن القرآن الكريم، وإجلاله لمحله، وجاء الضمير بدل الاسم الصريح ليشير إلى أن القرآن حاضر في جميع الأذهان.

وكان نزول القرآن في ليلة مباركة كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدّخان: 3]، وهذه الليلة في شهر رَمَضَانَ المبارك لقوله تبارك وتعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البَقَرَة: 185].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (نزل به جبريل عليه السلام جملة واحدة في ليلة القدر، من

اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، إلى بيت العزة، وأملاه جبريل على السَّفَرة، ثم كان جبريل ينزله على النبيّ ﷺ نُجوماً نجوماً، وكان بين أوّله وآخره ثلاث وعشرون سنة)[1].

﴿فِي لَيْلَةِ﴾ ولم يقل: في نهار القدر، وهذا مشعر بفضل اختصاص الليل، ولقد ذكر الحق ﷻ في كثير من الآيات أجل الأعمال التي تقام بالليل، كالإسراء والمعراج كانا في الليل، وفضيلة التهجد ليلاً، وكثيراً ما يرد الليل في سياق الصفاء والعبودية له سبحانه وتعالى، وهذا يدل على أن الليل أخص بالنفحات الإلهية، وبتجليات الرب سبحانه وتعالى، وذلك لخلو القلب، وانقطاع الشواغل، وسكون الليل، ورهبته أقوى على استحضار القلب وصفائه من النهار، لأن النهار مليء بالأصداء والأضواء، والمكدرات والمزعجات، مما يشتت الذهن، ويشغل القلب، ويكدر صفو القلب.

❑﴿ٱلْقَدْرِ﴾: ذكر العلماء أسباباً كثيرة لتسميتها بهذا الاسم منها:

1 **ليلة الحكم**: والمعنى ليلة التقدير، سميت بذلك لأن الله تعالى يقدّر فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة، من أمر الموت والأجل والرزق وغيره، ويسلمه إلى مدبِّرات الأمور، وهم أربعة من الملائكة: إسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، وجبريل؛ عليهم السلام، وعن ابن عباس قال: يُكْتَب من أم الكتاب ما يكون في السنة من رزق ومطر وحياة وموت، حَتَّى الحاجّ، قال عكرمة: يُكتب حاجّ بيت الله تعالى في ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم، ما يُغادَر منهم أحد، ولا يُزاد فيهم.

2 وقيل: إنما سميت بذلك لعِظمِها وقَدْرها وشرفها، من قولهم: لفلان قَدْر، أي شرف ومنزلة. قاله الزُّهْرِيّ وغيره. وقيل: سُمِّيت بذلك لأن للطاعات فيها قَدْراً عظيماً، وثواباً جزيلاً.

(1) جامع البيان، للطبري، 20/ 129.

3 وقال أبو بكر الورّاق: سميت بذلك لأن من لم يكن له قدر ولا خطر يصير في هذه الليلة ذا قدر إذا أحياها.

4 وقيل: سميت بذلك لأنه أُنزل فيها كتاباً ذا قدر، على رسول ذي قدر ﷺ، على أمة ذات قدر.

5 وقيل: لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وخَطَر.

6 وقيل: لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة.

7 وقال سهل: سميت بذلك لأن الله تعالى قدّر فيها الرحمة على المؤمنين.

8 وقال الخليل: لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة[1].

ومهما تعددت الأقوال بسبب تسميتها، فإنها تصب جميعاً في بحر عطاءات هذه الليلة، وتنسجم مع ما نزل فيها من خير وبركة، وتتناسب والحدث الكوني العظيم الذي هو نزول القرآن الكريم، وهل يوجد في الكون حدث أعظم من نزول القرآن في ليلة مباركة، ليلة يفرق فيها كل أمر حكيم، ليلة كانت إشعاع نور على العالمين.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ [القدر: 2، 3].

أي وما أشعرك يا محمد أي شيء ليلة القدر، وكلما ورد في القرآن ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فمعناه قد أدراه، وإذا ورد ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فإنه لم يدره.

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ [القدر: 3].

والعدد في مثل هذه الأماكن لا يفيد الحصر ولا التحديد، إنما هو للتكثير، وليلة القدر خير من آلاف الشهور والسنين في حياة الناس، فكم وكم من آلاف الشهور قد انصرمت في الأحقاب البشرية السالفة، وما تركت في نفوس الناس وواقعهم وحياتهم، بعض ما تركته هذه الليلة المباركة من آثار وانقلاب في نظام

(1) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 20/ 130.

الحياة بشتى أصعدتها.

والعرب تذكر الألف وتعني به جميع الدهر، وهذه قاعدة مضطردة، ففي سورة البقرة: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البَقَرَة: 96]، لكن العدد هنا للتكثير لا للتحديد، إذ إنه يتمنى أن يعمر الدهر كله.

وإن فضل الأزمان إنما يقاس بما يحصل فيها، لأنها ظروف للأعمال وليست لها صفات ذاتية يمكن أن تتفاضل بها كتفاضل الناس، ففضلها بما أعدّه الله لها من التفضيل كتفضيل ثلث الليل الأخير للقربات.

❑ وورد سبب نزولها:

(أنه كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدوّ بالنهار حتي يُمْسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القَدر: 3] قيام تلك الليلة خير من عمر ذلك الرجل)[1].

وقال الإمام القرطبي: إن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابداً حتى يعبد الله ألف شهر، ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر، فجعل الله تعالى لأمة محمد ﷺ عبادة ليلة خيراً من ألف شهر كانوا يعبدونها، وقال أبو بكر الوراق: كان ملك سليمان خمسمائة شهر، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر فصار ملكهما ألف شهر، فجعل الله تعالى العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما، وقال ابن مسعود: إن النبيّ (ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبِس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجِب المسلمون من ذلك، فنزلت ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ الآية، ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، التي لبِس فيها الرجل سلاحه في سبيل الله ونحوه عن ابن عباس.

وقال وهب بن منبه: إن ذلك الرجل كان مسلماً، وإن أمّه جعلته نذراً للّه، وكان من قرية قوم يعبدون الأصنام، وكان سكن قريباً منها، فجعل يغزوهم وحده، ويقتل ويسبي ويجاهد، وكان لا يلقاهم إلّا بِلَحيَيْ بعير، وكان إذا قاتلهم وقاتلوه وعطِش، انفجر له من اللَّحيين ماء عذب، فيشرب منه، وكان قد أُعطِي قوّة في

(1) جامع البيان، للطبري، 30/ 161.

البطش، لا يوجعه حديد ولا غيره: وكان اسمه شَمْسُون.

وقال كعب الأحبار: كان رجلاً ملِكاً في بني إسرائيل، فعل خَصْلة واحدة، فأوحى الله إلى نَبِيّ زمانهم: قل لفلان يتمنى، فقال: يا رب أتمنّى أن أجاهد بمالي وولدي ونفسي، فرزقه الله ألف ولد، فكان يجهز الولد بماله في عسكر، ويخرجه مجاهداً في سبيل الله، فيقوم شهراً ويقتل ذلك الولد، ثم يجهز آخر في عسكر، فكان كل ولد يقتل في الشهر، والملِك مع ذلك قائم الليلِ، صائم النهار، فقتِل الأَلْف وَلد في ألف شهر، ثم تقدم فقاتل فقتِل، فقال الناس: لا أحد يدرك منزلة هذا الملك، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ [القدر: 3] من شهور ذلك الملك، في القيام والصيام والجهاد بالمال والنفسِ والأولاد في سبيل الله[1].

وعند مالك في الموطّأ من رواية ابن القاسم وغيره قال: (سمعت من أثق به يقول: إن رسول الله ﷺ أُرِي أعمار الأمم قبله، فكأنه تقاصر أعمار أمّته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيراً من ألف شهر)[2].

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر: 4].

أي تهبط الملائكة من كل سماء، ومن سدرة المنتهى، وسكن جبريل على وسطها، فينزلون ويؤمنون على دعاء الناس وقت طلوع الفجر، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: (أي يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة كما يتنزلون عند تلاوة القرآن، ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيماً له، وأما الروح فقيل المراد به ههنا جبريل عليه السلام، فيكون من باب عطف الخاص على العام، وقيل هم ضرب من الملائكة والله أعلم)[3].

(1) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 20/ 131.
(2) موطأ مالك، 1/ 321، رقم: (698).
(3) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير 8/ 424.

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر: 5].

أي ليلة القدر سلامة وخير كلها لا شر فيها، قال أبو السعود: (أيْ مَا هيَ إلّا سلامةٌ أيْ لا يقدرُ اللهُ تعالى إلّا السلامةَ والخيرَ، وأمَّا في غيرِها فيقضي سلامةً وبلاءً، أوْ ما هيَ إلّا سلامٌ لكثرةِ ما يسلمونَ فيها على المؤمنينَ)[1].

أيها الصائمون الأكارم:

ولقد ذكر العلماء لهذه الليلة الكريمة علامات تدل عليها، وأمارات تبشر صاحبها بأنه حظي بها، منها: (أن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها، وقال الحسن: قال النبيّ ﷺ في ليلة القدر: «**إن من أماراتها: أنها ليلة سَمْحَة بَلْجَة، لا حارّة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع**»، وقال عبيد بن عمير: كنت ليلة السابع والعشرين في البحر، فأخذت من مائه، فوجدته عذباً سلِساً)[2].

أيها الأحبـــاب:

لقد ندبنا النبي ﷺ إحياء هذه الليلة المباركة بالذكر والقيام وتلاوة القرآن وغيرها من العبادات، قال رسول الله ﷺ: «**مَن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»[3].

وسألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ فقالت: أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: قولي: «**اللَّهم إنك عفوٌّ تحب العفو فاعف عني**»[4].

وقد اختلف العلماء في تحديدها، والذي عليه المُعْظَم أنها ليلة سبع وعشرين.

1 وقيل: هي في ليالي السنة كلها.

(1) إرشاد العقل السليم، لأبي سعود العمادي، 9/ 182.
(2) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، 20/ 134.
(3) رواه البخاري، 2/ 672، رقم: (1802).
(4) الحاكم في المستدرك، 1/ 712، رقم: (1942)، وقال: هذا حديث صحيح.

2 وقيل: إنها الليلة الأولى من الشهر، قاله أبو رَزِين العُقَيلي.

3 وقال: الحسن وابن إسحاق وعبد الله بن الزُّبير: هي ليلة سبع عشرة من رَمَضَان، وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدْر.

4 قيل: هي ليلة التاسع عشر.

والصحيح المشهور: أنها في العشر الأواخر من رَمَضَان، وهو قول مالك والشافعيّ والأوزاعيّ وأبي ثور وأحمد، ثم قال قوم: هي ليلة الحادي والعشرين، ومال إليه الشافعيّ رضي الله عنه.

5 وقيل: ليلة الثالث والعشرين.

6 وقال أبو بكر الوراق: إن الله تعالى قسم ليالي هذا الشهر ـ شهر رَمَضَان ـ على كلمات هذه السورة، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال: (هي) وأيضاً فإن ليلة القدر كُرر ذكرها ثلاث مرات، وهي تسعة أحرف، فتجيء سبعاً وعشرين.

7 وقيل: هي ليلة تسع وعشرين.

8 وقيل: إنها في الأشفاع.

9 وقيل: أخفاها في جميع شهر رَمَضَان، ليجتهدوا في العمل والعبادة ليالي شهر رَمَضَان، طمعاً في إدراكها، وما أجمل ما قاله الإمام الرازي في تفسيره الكبير ههنا[1]:

أنه تعالى أخفى هذه الليلة لوجوه:

أحدها: أنه تعالى أخفاها، كما أخفى سائر الأشياء، فإنه أخفى رضاه في الطاعات، حتى يرغبوا في الكل، وأخفى الإجابة في الدعاء ليبالغوا

(1) التفسير الكبير، للإمام الرازي، 32/ 235.

في كل الدعوات، وأخفى الاسم الأعظم ليعظموا كل الأسماء، وأخفى في الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل، وأخفى قبول التوبة ليواظب المكلف على جميع أقسام التوبة، وأخفى وقت الموت ليخاف المكلف، فكذا أخفى هذه الليلة ليعظموا جميع ليالي رَمَضَانَ.

وثانيها: كأنه تعالى يقول: لو عينت ليلة القدر، وأنا عالم بتجاسركم على المعصية، فربما دعتك الشهوة في تلك الليلة إلى المعصية، فوقعت في الذنب، فكانت معصيتك مع علمك أشد من معصيتك لا مع علمك، فلهذا السبب أخفيتها عليك، فكأنه تعالى يقول: إذا علمت ليلة القدر فإن أطعت فيها اكتسبت ثواب ألف شهر، وإن عصيت فيها اكتسب عقاب ألف شهر، ودفع العقاب أولى من جلب الثواب.

وثالثها: أني أخفيت هذه الليلة حتى يجتهد المكلف في طلبها، فيكتسب ثواب الاجتهاد.

ورابعها: أن العبد إذا لم يتيقن ليلة القدر، فإنه يجتهد في الطاعة في جميع ليالي رَمَضَانَ، على رجاء أنه ربما كانت هذه الليلة هي ليلة القدر، فيباهي اللهُ تعالى بهم ملائكته، يقول: كنتم تقولون فيهم يفسدون ويسفكون الدماء، فهذا جده واجتهاده في الليلة المظنونة، فكيف لو جعلتها معلومة له؟ فحينئذ يظهر سر قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 30].

أيها الأحباب:

إن السلف الصالح رضوان اللهُ عليهم كانوا يعدون ليالي العشر الأخير من رَمَضَانَ عداً، فتراهم في أسحارها منيبين مستغفرين، وفي أيامها ضارعين مخبتين.

قد مزق الحب قميص الصبر ... قد غدوت حائراً في أمري
آهٍ على تلك الليالي الغُر ... ما كنَّ إلّا كليالي القدر
إنْ عدنَ لي من بعد هذا الهجر ... وفَّيت للَّه بكل نذر

أيها الصائمون الكرام:

إنها ليلة مباركة كريمة، تفتح فيها أبواب السماء، وتتنزل فيها الرحمات، فيا سعادة من أحياها من الأنام، ومنع جفونه من لذيذ المنام، ويا فوز من رفع فيها الشكوى، وأكثر من النجوى، ويا لها من ليلة ما رفعت إلى السماء فيها حاجة محتاج إلّا قضيت، ولا دعوة مظلوم إلّا نصرت، ولا صعدت إليه أنفاس مكروب إلّا نفست، ولا هموم مهموم إلّا فرجت، ليلة تستر فيها العيوب، وتغفر فيها الذنوب، وتجبر فيها القلوب.

يا مسلمون:

إن شهر رَمَضَانَ عزم على الرحيل، ولم يبق منه إلّا القليل، فمن منا أحسن فيه فعليه التمام، ومن كان فرَّط فليختمه بالحسنى، فالعمل بالختام، فاستمتعوا منه فيما بقي من الليالي اليسيرة والأيام، واستودعوه عملاً صالحاً يشهد لكم به عند الملك العلام.

فأكثروا إخواني رحمكم الله في هذه الليلة من الدعاء فإنه مخ العبادة، واستزيدوا فيها من التسبيح والتحميد والتهليل فإنها زينة العبادة، وابدؤوا أعمالكم واختموها بالصلاة والسلام على الشفيع النذير ﷺ لتكون أرجى للقبول، وأشركونا في دعائكم عسى الله أن يغفر الزلة، ويتجاوز عن الغفلة.

اللَّهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا، اللَّهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا، اللَّهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا.

اللَّهم تقبل منا ما كان صالحاً، وأصلح ما كان فاسداً، وأصلح فساد قلوبنا يا رب العالمين.

اللَّهم صل وسلم وبارك على حبيبك وحبيبنا سيدنا محمد ﷺ في الأولين والآخرين وفي الملأ الأعلى إلى يوم الدين.